جدل المفارقة بين الدور الأخلاقى والدور الاجتماعى للأولياء في المغرب والأندلس

" أبوالعباس السبتى..... أنموذجاً "

د. سيد طواب عبدالسيد
دكتوراه في التصوف الإسلامى

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الفرقان علي عبده محكما ومفصلا؛ لينظر فيه أولى الألباب. والصلاة والسلام علي سيدنا ومولانا محمد – صل الله عليه وسلم – الذي أرسله الله رحمة للعالمين وعلي آله وصحبه الطيبين. وبعد..

لا شك أن ظاهرة الأولياء والمتصوفة شكلت مرحلة هامة في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس إبان الحقبة المرابطية، ونجحوا في التأثير في شرائح اجتماعية كبيرة، وتركوا بصماتهم واضحة في أخلاق المجتمع، وقاموا بأدوار مؤثرة في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، كما قام المتصوفة والأولياء بمحاولة إعادة التوازن الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فلعبوا أدوارا متنوعة في كل المجالات، بالإضافة إلي ذلك تبنوا موقف المعارضة، والتي تراوحت بين المعارضة الصامتة التي اعتمدت خطابا غير مباشر يستند علي توظيف الكرامة الصوفية لإعادة بناء المجتمع، ثم المعارضة التي نهجت أسلوب العنف والثورة، ورغم ذلك فإن التيارين معا نجحا في التأثير في شرائح هامة من المجتمع، فأسسا الجذور الأولى للتصوف المغربي، وتركا بصمات واضحة في تطور مسار المجتمع. ومن هذا المنطلق يأتي هذا البحث كمحاولة لإلقاء الضوء علي أهمية الأدوار التي قام بها الأولياء والمتصوفة في المغرب والأندلس إبان الحقبة المرابطية. كما نحاول من خلال هذا البحث أن نجيب عن بعض إشكاليات البحث المطروحة، والتي تشكل في الوقت ذاته موجهات لهذه الدراسة مثل:

١- هل كان للكرامة الصوفية دورا هاما داخل المجتمع المغربي والأندلسي إبان هذه الفترة ؟
٢- ما الأدوار الأخرى التي قام بها الأولياء والمتصوفة داخل شرائح المجتمع المغربي والأندلسي؟
٣- ما المراكز الصوفية التي انتشرت في بلاد الأندلس خلال هذه الحقبة، وما القاسم المشترك الذي ميز التيار الصوفي في جُل هذه المناطق ؟

منهج الدراسة :

أما عن المنهج الذي استعنت به في هذا البحث فهو " **المنهج التحليلي المقارن** " حيث إنه يعد أنسب المناهج لمجريات هذا البحث، والذي يعتمد على التحليل والمقارنة بين التيارات المختلفة لأصحاب الفكر الصوفي خلال هذه الفترة، ومن خلال هذا المنهج قمت بتعريف أصحاب التيارات الصوفية محللا آراء وأفكار هذه الاتجاهات، ومقارناً بينها، للتعرف

علي أهم نقاط الاتفاق والاختلاف بينها، ولم أقتصر فقط علي المنهج التحليلي المقارن على طول البحث، بل لجأت أحيانا إلى استخدام بعض المناهج الأخرى التي كانت ضرورية لهذه الدراسة، ومنها المنهج التاريخي، وذلك من خلال عرض بعض آراء أصحاب المدرسة السبتية في القرن السادس الهجري، ثم آراء أصحاب المدارس الأخرى والتي تركت بصمات واضحة في أخلاق وقيم المجتمع.

أسباب اختيار الموضوع:

الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا البحث كثيرة اذكر منها علي سبيل المثال وليس الحصر:

١- توضيح دور القيم والأخلاق التي دعا إليها أصحاب التيارات الصوفية في القرن السادس الهجري، والتي تتمثل في العدل والمساواة داخل المجتمع.
٢- بيان مدى تأثير دور الكرامة الصوفية في شرائح المجتمع، وذلك من خلال الوظيفة النفسية التي تقوم بها، حيث لعبت دورا هاما داخل المجتمع، وعلي الخصوص في الميدان الأخلاقي والاجتماعي.
٣- شرح الأدوار الأخرى التي قام بها الأولياء والمتصوفة داخل المجتمع العربي والأندلسي، والتي تتمثل في تهذيب الأخلاق، وإعلاء روح القيم، والتي ترمز إلي معانٍ إنسانية مستوحاة من روح الإسلام.

ويتكون البحث من عدة محاور:

المحور الأول : دور الكرامة الصوفية داخل المجتمع المغرب والأندلسى.

المحور الثانى : الدور الأخلاقى للأولياء في المجتمع المغربى والأندلسى.

المحور الثالث : الدور الاجتماعى للأولياء في المجتمع المغربى والأندلسى.

المحور الرابع : أبو العباس السبتى ومذهبه الأخلاقى والأجتماعى.

وفى **الخاتمة** تناولت أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال هذه الدراسة، وعرضت أيضا لأهم المصادر والمراجع التى استعنت بها.

المحور الأول

دور الكرامة الصوفية داخل المجتمع المغربى والاندلسى

الكرامة لغة واصطلاحا :

أ - الكرامة لغة :-

ورد لفظ الكرامة فى المعاجم العربية القديمة بعدة الفاظ، أذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر:

يقول ابن منظور فى لسان العرب : الأكرومة : المكرمة.و الأكرومة من الكرم : كالأعجوبة من العجب، وأكرم الرجل: أتى بأولاد كرام، والكريم :الذى كرم نفسه عن التدنس بشىء من مخالفة ربه.(١)

وبمعنى آخر يقول ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة : والكرم فى الخلق، ويقال هو الصفح عن ذنب المذنب، قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة : الكريم : الصفوح.(٢)

وعرفها الخليل بن أحمد فى كتاب العين على النحو التالى : " كرم " الكرم : شرف الرجل. رجل كريم، وقوم كرم وكرام، نحو أديم وادم وعمود وعمد،....،...، ورجل كرام أى كريم. وتكرم عن الشائنات أى تنزه "(٣)

وعلى ذلك يتبين أن الكرامة من حيث معناها اللغوى تعنى : الأكرومة : المكرمة من الكرم، أى التكريم عن الشائنات وتنزية النفس عن التدنيس من مخالفة الله، وعليه يمكن القول إن المسلك الأصلى للكرامة كان عقائديا روحيا، ولهذا يجب البحث عن التعريف الاصطلاحى لها من منظور الفقهاء ورجال الشريعة.

ب- الكرامة اصطلاحا:

تَعدَد مفهوم الكرامة بين الفقهاء والصوفية، وأذكر من ذلك على سبيل المثال وليس الحصر:

عرف الإمام اللالكائى (ت ٣٨١هـ) الكرامة بقولة " الكرامة أمر خارق للعادة، يظهره الله عز وجل على أيدى أوليائه.(٤)

١- ابن منظور : لسان العرب، تحقيق أمين محمد عبدالوهاب ومحمد الصادق، ج١٢، مادة (كرم)، د.ط، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٩٩، ص٧٧

٢- ابن فارس : مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ج٥، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٢٧٢

٣- الخليل بن احمد الفراهيدي : كتاب العين، تحقيق عبدالحميد هنداوى، ج٤، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٢٤

٤- أبو القاسم اللاكائى : كرامات أولياء الله عز وجل : تحقيق احمد سعد حمدان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٢، ص١٤

فى حين عرفها ابن الزيات (ت ٧٨٧هـ) بقوله " اعلم أن كرامات الأولياء جائزة عقلا ومعلومة قطعا، وممن قال بها إمام المتكلمين أبو بكر بن الطيب فقال : إن المعجزة تختص بالأنبياء والكرامات تكون للأولياء[١] وجاء عن الإمام ابن تيمية (ت ٦٢٧هـ) : وان كان اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة فى اللغة، وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام احمد بن حنبل وغيره – ويسمونها : الآيات لكن كثير من المتأخرين يفرق فى اللفظ بينهما، فيجعل المعجزة للنبي والكرامة للولى، وجامعهما الأمر الخارق للعادة.[٢]

وفى العصر الحديث أيضا نجد أن للفظ الكرامة عدة مفاهيم وتعريفات، أذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر:

تقول سعاد الحكيم في المعجم الصوفى : " كرامات الأولياء ليست من قبيل السحر فإن لها حقيقة في نفسها، وجودية، وليست بمعجزة، فإنه على علم عن قوة همه.. كل ولى ظهر عليه خرق العادة عن غير همته، فيكون إلى النبوة أقرب ممن ظهر عنه خرق العادة بهمته، والأنبياء هم العبيد على أصلهم.[٣]

وعرفها عبد المنعم الحفنى في معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية بقوله " الكرامة هر أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدى ودعوى النبوة، يظهره الله عز وجل على يد بعض أوليائه.[٤]

ومن خلال ماسبق يتبين أن الكرامة للأولياء، والمعجزة للأنبياء ، فمفهوم الكرامة كان محل جدل بين الفقهاء، أما فى الدراسات الحديثة فنالت أيضا الكرامة نصيبا من الدراسات والبحوث، فكانت محل جدل بين الفقهاء بصفة عامة، ولدى المتصوفة بصفة خاصة، فمنهم من ربطها بالخارق للعادة، وكانت لديهم مقسمة على مراتب، ومنهم من أجاز ثبوتها، ومنهم من نفى صحتها.

أما عن دور الكرامة الصوفية داخل المجتمع المغربى والأندلس فقد لعبت الكرامة الصوفية دورا هاما خلال تلك الفترة، فقد استند عليها الصوفية لمعالجة الأمور الخاصة بالمجتمع، فاللكرامة الصوفية وظيفة نفسية أثرت في قطاع عريض من الشرائح الأجتماعية، وهو الأمر الذي جعل الأولياء يلعبون دورا هاما داخل المجتمع، وعلى الأخص في الميدان

١- ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف – وأخبار ابى العباس السبتى، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط٢، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ص٥٤.
٢- الإمام بن تيمية : المعجزات والكرامات، تحقيق ابى عبدالله محمود إبن الإمام، مكتبة الصحابة، ط١، ١٩٨٦م، طنطا، ص٩، وانظر أيضا اسماعيل النبهانى : جامع كرامات الأولياء، ص ٧.
٣- سعاد الحكيم : المعجم الصوفى، ندرة للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٩٦٦.
٤- عبد المنعم الحفنى : معجم المصطلحات الصوفية، دار المسيرة، ط٢، بيروت، ١٩٨٧م، ص٢٢٣.

الأخلاقى والأجتماعى، لأن الفرد في أى مجتمع من المجتمعات تتعاقب عليه حالات يشعر فيها بالخوف من البشر (سلطة سياسية، لصوص...،....) أو من الطبيعة مثل (الفقر، المرض، كوارث،...،...) أو يعجز عن تحقيق رغباته (إنجاب أطفال، افتداء أسير،...) فيكون اللجوء إلى الولى هو السبيل الوحيد لتحقيق مسعاه.[١]

١- حسن جلاب : الحركة الصوفية بمراكش: أثرها فى الأدب، رسالة دكتوراه غير منشورة، ج١، ص ١٤٢.

المحور الثانى
الدور الأخلاقى للأولياء في المجتمع المغربى والأندلس :

لعب المتصوفة دورا أخلاقيا قل نظيره حتى قيل لبعض الباحثين إن دورهم اقتصر على الجانب الأخلاقى فقط، والدليل على ذلك كتاب " أنس الوحيد ونزهة المريد " الذي ألفه الولى أبو مدين شعيب (*) يفيض بالموعظة والحكم المعبرة عن السلوك الأخلاقى المثالى، للداعاية إلى الزهد في الحياة، والتمسك بالدين، وتجنب الطمع، والابتعاد عن صحبة المبتدعة والأحداث، والبذل، والسخاء، والإخلاص فى العمل، ومجالسة العلماء وأهل المعرفة.(١)

كما دعا المتصوفة إلى سلوك سبيل العبادة، وإقامة فرائض الصلاة، والدليل على ذلك أن أبأ يعزى كان يعلم بقلبه تاركى الصلاة فيفضحهم ويؤنبهم، ولم يكتف الأولياء بذلك بل دعوا إلى تجنب شرب الخمر، وذلك نظرا لانتشار الخمر في تلك الفترة، بالإضافة إلى ذلك تمكن بعض الأولياء من هداية المنحرفين، وأهل الدعارة والفساد، بل إن كثيرا ممن كانوا مغنين وراقصين في الأعراس أصبحوا في عداد الأولياء والأقطاب(٢).

وبناء على ما سبق يتبين أن الأولياء والمتصوفة نجحوا في التأثير في شرائح اجتماعية هامة، وأصدق دليل على ذلك استطاع الولى أبو يعزى أن يستقطب حوله "ألوفاً مؤلفة" من الناس الذين دخلوا طريقته، وصاروا يحجون إليه دون انقطاع، كما تخرج على يد أبى مدين ألف تلميذ حسبما ذكر ابن الزيات.(٣)

والجدير بالذكر أن هذا الدور برز بشكل واضح في الأثر الذى خلفه هؤلاء المتصوفة في الأمراء أنفسهم، والدليل على ذلك أن زكريا بن يوغان أحد أمراء الملثمين بتلمسان تأثر بالتيار الصوفى على يد عبد السلام التونسى، فأزال عنه كل مظاهر الأبهة والكبرياء، وانتقل من تلمسان إلى الصحراء ليخلوا إلى نفسة، ويدخل حياة الزهد(٤)، ويصف ابن الزيات المتصوف أبا اسحاق بن يحيى المسرفى الذى أزِال اللثام عن فمه " رمزا عن تخلية عن كبريائه، وتعلقه بأهل الطريق.(٥)

---

*- هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصارى، لقب ب " شيخ الشيوخ " ولقبه ابن عربى بـ " معلم المعلمين " ولد سنة ٥٠٩ هـ بالقرب من إشبيليه، فقيه ومتصوف وشاعر أندلسى، يعد أحد أهم مؤسسي التصوف في بلاد المغرب والأندلس، ولأبى مدين شعيب مؤلفات كثيرة في التصوف، وديوان في الشعر الصوفى، وكذلك كتاب "أنس الوحيد ونزهة المدين في التوحيد، وكتاب " بداية المريدين "، توفى بتلمسان عام ٥٩٤ هـ، (ولمعرفة المزيد انظر عبد الحليم محمود : شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث – حياته ومعراجه إلى الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، وأيضا محمد طاهر علاوى : العلم الربانى سيدى أبو مدين شعيب، شركة دار الأئمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٤م.

١- ابراهيم بوتشيش : المغرب والأندلس في عهد المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د. ت، ص١٦٢.
٢- المرجع السابق نفسه، ص١٦١.
٣- ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، ص٥٦؟
٤- المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.
٥- ابراهيم بوتشيش : المغرب والاندلس في عهد المرابطين، ص١٦١.

المحور الثالث

الدور الاجتماعى للأولياء في المغرب والأندلس:-

قام الصوفية بدور هام داخل شرائح المجتمع وعلى الخصوص في الميدان الاجتماعي استنادا إلى الكرامة الصوفية ، حيث قام الأولياء بدور لايمكن إنكاره، فقد كان العوام يلجأون إليهم كلما حاق بهم مكروه، أو كارثة طبيعية كالقحط، والجفاف، والمجاعات، ومن الأدلة على ذلك شهدت مدينة فاس جفافا فى إحدى السنوات، فاستغاث أهلها بأبى يعزى، وقصدوه فى المسجد الذى كان يقيم فيه " فأخذ فى البكاء والتضرع إلى الله إلى أن غيمت السماء وهطلت بالأمطار " [١]

إلى جانب ذلك لعب الصوفية دورا هاما إبان المجاعات التى اجتاحت مدينة مراكش المغربية، فجمع أحد المتصوفة الفقراء بجامع على بن يوسف، فأخرج ماعنده من القمح والسمن، وفرَّقه عليهم حتى لم يبق منه شىء[٢]، كما اضطرت امرأه لبيع منزلها إلى أحد الأولياء بثمن زهيد لتقاوم أهوال مجاعة حلت بالمنطقة التى تقيم بها، فدفع إليها الولى ثمن المنزل، غير أنه رد إليها فيما بعد منزلها، وطمأنها بأن المال الذى قبضه إنما بعثه لها لتسد به رمقها فى تلك المجاعة.

كذلك من الأدلة أيضا، المحاولات التى قام بها المتصوفة للتخفيف من الضرائب التى أثقلت كاهل العوام، فقد بلغ إلى علم أحد الأولياء أن عاملا من العمال طالب الناس بمغارم غير شرعية، فدعا عليه، ولم تمض إلا أيام يسيرة حتى جاء كتاب الأمير بعزله " فلم يؤدوا فى ذلك العام شيئا ". [٣]

بالإضافة إلى ذلك لم يدخر الأولياء وسعا فى إعانة المحتاجين، ومد يد العون للفقراء بواسطة الإحسان لهم وبذل العطاء، ومما يعكس الدور الاجتماعى الذى قام به المتصوفة، ما ذكرته كتب المناقب عن الشيخ أبى يعزى الذى كان يحرث الأرض، ويعطى التسع أعشار للمساكين، ويحتفظ بالعشر فقط لنفسه، ويؤكد على ذلك بقوله : إننى أستحيى أن أمسك تسعة أعشار وأصرف العُشر للمساكين، فإن هذا من سوء الأدب مع الله عز وجل.

أما عن دورهم فى التعليم، فقد برز دور المتصوفة فى علاج المرضى بشكل مثير للإنتباه، فعالجوا الأمراض التى عجز عنها الأطباء، فالمتصوف أبو يعزى أشتهر بعلاج

١- حسن جلاب : بحوث في التصوف المغربى، المطبعة والوراقة الوطنية، ط١، مراكش، ١٩٩٥م، ص٦٧.
٢- ابن الزيات : التشوف، ص١٥٢.
٣- نفس المرجع السابق نفسه، ص١٥٣.

الأمراض المستعصية، فقد تمكن من إبراء جارية من مرض العمى عن طريق مسح عينيها بيده، كما عرف بمهارته فى علاج أمراض الصرع والمقعدين، وكان الكثير من العوام يحجون إليه، فيأتيه بعضهم بإناء زيت، أو بقية طعام ليبلله بريقه، أو يعطونه خيطا أملا فى الشفاء.[١]

وأيضا الدور الدينى للأولياء والمتصوفة لايقل أهمية عن الأدوار السابقة، فقد لعبوا دورا هاما فى ذلك، وهو الأمر الذى أشار إليه بعض الباحثين الغربيين، مثل الباحث الغربى " لوبينياك " حيث أشار إلى مساهمة الأولياء في نشر الإسلام بين البربر، ومن الأدلة على ذلك أن الولى أبا يعزى نجح فى إدخال أحد المسيحيين فى الإسلام، وكان أبو مدين شعيب من الأقطاب الذين لجا إليه الطلبة لحل المعضلات العقائدية، والمثال على ذلك أن جدالا وقع بين طلبة العلم فى إحدى المدن حول حديث نبوى، فاستطاع هذا الولى أن يحل ما أشكل عليهم.

بالإضافة إلى ذلك ساهم الأولياء بمؤلفات صوفية من تفاسير وشروح للقرآن والعقيدة، وتنظيم حلقات المريدين، الأمر الذى أدى إلى فتح بصيرة العامة حول قضايا دينهم وتقريبه من أذهانهم[٢]، يضاف إلى ذلك مساهمة الأولياء فى بناء المساجد خدمة للمسلمين، وسعياً وراء توعية الناس بأركان العبادات، وكل ما يتعلق بالشئون الدينية، واجتهد بعضهم فى تحديد قبلتها، وداخل هذه المساجد نفسها أسهم المتصوفة بدور فعال فى شرح وتوضيح دروس الوعظ الدينى.[٣]

ومن الأدلة أيضا والتى تدل على الدور الدينى للأولياء في تلك الفترة دور المتصوفة في تسهيل مأمورية الحجاج، ومساعدة الفقراء الذين عجزوا عن أداء الفريضة الدينية، والمثال على ذلك: طلب رؤساء المراكب المتجهة إلى الحج من أحد الأولياء أن يرافقهم لفضلة وورعة وتبركا به، فأشترط عليهم أن يصحبوا معه " كل من يريد أن يركب من المساكين ممن يريد أن يتوجه إلى مكة " دون أن يأخذوا منهم درهما[٤].

وبناء على ما سبق يتبين أن الأولياء والمتصوفة قاموا بأدوار مؤثرة في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقيه، وتمكنوا من التأثير في شرائح هامة داخل المجتمع المغربى خلال تلك الفترة.

١- ابراهيم بوتشيش : المغرب والأندلس في عهد المرابطين، ص١٥٩، ١٦٠.
٢- ألف المتصوفة العديد من الكتب المتعلقة بالعقيدة مثل ابن برجان الذي ألف كتابين: كتاب " تفسير القرآن وشرح الأسماء الحسنى "، انظر السيوطى : طبقات المفسرين، ص٦٨، ويذكر القاضى عياض كتابا لأبى عبدالله الصوفى تحت عنوان " المنتقى من كلام أهل التقى " انظر الغنية، ص٩١، ٩٢.
٣- ابن الزيات : التشوف، ص ١٣٧.
٤- ابراهيم بوتشيش : المغرب والأندلس في عهد المرابطين، ص١٦٣.

المحور الرابع

أبوالعباس السبتى ومذهبه الأخلاقى والاجتماعى

بداية يمكن القول إن أبا العباس السبتى قدم نموذجا للدور الأخلاقى للمتصوفه، وترك بصمة واضحة في أخلاق المجتمع خلال هذه الفترة، وذلك من خلال غرس قيم الرحمة والإحسان داخل المجتمع، كما ربط ذلك بشعائر العبادة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى دعا إلى إعلاء قيم الزهد في الحياة، وتهذيب الأخلاق، وترك الكبرياء، والذي أثر في شرائح كثيرة داخل المجتمع.

وقبل الحديث عن المذهب الأخلاقى والاجتماعى للصوفى أبي العباس السبتى خلال تلك الفترة، تجدر الإشارة إلى بيان بعض ملامح أطوار حياته وبالأخص (اسمه ونسبه).

اسمه ونسبه:

هو أحمد بن جعفر الخزرجى، ولد بمدينة سبته عام ٥٢٤ هـ، وكانت مدينة سبته في ذلك الوقت من أكبر عواصم العلم والحضارة في المغرب الإسلامى وكانت عامرة بالعلماء والتجار والزهاد، لا يخلو من ذكره كتاب عن التصوف في بلاد المغرب، وتناوله ابن الزيات "التادلى" آخر كتابه " التشوف " أخبارا وافية عنه سماها " أخبار أبى العباس السبتى، وترجم له بعض المشارقة كالإمام النبهانى في كتابه " جامع كرامات الأولياء " وينتسب إلى أسرة أمازيغية فقيرة، إذ بوفاة والده اضطرت أمه إلى إرساله إلى حائك (نساج الحرير)، لتعلم الحرفة مقابل أجر ، وبالرغم من أن أبا العباس كانت له رغبة في العلم ، إلا أنه كان يفر من معمل الحائك ليلتحق بكتاب الشيخ أبى عبدالله محمد الفخار، ثم تعيده أمه مرة ثانية بعد معاقبته، ومع تكرار الحادث تدخل الشيخ مقترحا على الأم أن يعلم الصبى ويدفع لها.[١]

وعندما بلغ من العمر ست عشرة عاما، وقع اختياره على مراكش ؛ لأنها عاصمة الدولة الجديدة، وحظى هناك بالاهتمام، فدعاه الخليفة إلى الإقامة بالمدينة وأسند إليه مدرسة للعلم والتدريس، وهذه المرحلة من أخصب مراحل حياة أبى العباس، ففيها تم نشر مذهبه على نطاق واسع، إذ كان يطوف بنفسه في الأسواق ويحث الناس على الصدقة، وعلى المتاجرة مع الله، توفى بمراكش في اليوم الثالث من جمادى الآخر عام (ت٦٠١ هـ)، وكان رحمه الله مشاركا كبيرا في علوم الإسلام، فقيها على مذهب مالك، بصيرا بدقائق المذهب، ضابطا لقواعده، عارفا بصناعة الأحكام.. ، وكان بالعلم والعمل والزهد والورع والتصدق نموذجا يحتذى، ويتم كل هذا بحسب الأقوال وجمال الأفعال حتى وصفه ابن المؤقت المراكشى في كتابه " السعادة الأبدية في التعريف برجال الحضرة المراكشية " .

١- ابن الزيات : أخبار أبى العباس السبتى، ص٧.

والجدير بالذكر أن التصوف بدأ في العهد المرابطى ساذجا سنيا، بعيدا عن كل القضايا الفلسفية، وكذلك الحسابات السياسية، واكتفى في بعض أشكاله بمجاهدة النفس والزهد من أمثال : ابن عميرة، وابن فرند، وطور آخرون هذه المجاهدة فى النفس إلى جهاد النصارى والمتربصين بالإسلام من خلال المرابطة على الثغور، كأمثال الإمام الصدفى، ووقف آخرون على إحياء علوم الدين " للغزالى يستهلمون مبادئه دون التعمق فيها من أمثال: أبى الفضل بن النحوى، وأبى عبدالله الدقاق، وابن سعيد الصنهاجى،..... [١]

وأهم ما ميز هؤلاء هو ارتكازهم على الكرامة الصوفية، والبركة، والتشديد على الجانب الأخلاقى... والنزوع إلى السلام ، وعدم معارضة السلطة معارضة صريحة، وهذا التيار الصوفى السنى كان له دور كبير في التصوف المغربى.[٢]

ومن جانب آخر تكونت بمراكش في النصف الثانى حركة صوفيه ذات طابع خاص، وقد تمحورت الحركة حول الشخصية المغربية المهاجره من مدينة سبته إلى مراكش، ثم ظهر الصوفى أبو العباس السبتي، فجمع كثيرا من مواصفات المتصوف المتجرد للعباده والسياحة، وعاصر شيوخا كبارا في التصوف، وأكد على أن العبادة ظاهر وباطن، والعطاء هو الطريق لتحقيق التزكية، أى الشرط العميق للتوحيد.

وعلى الجانب الآخر يقول أبوالعباس السبتي " كان ابتداء أمرى أنى كنت صغيرا، فسمعت أقوال الناس في التوكل، فتفكرت في حقيقته إلى أن رأيت أن التوكل لا يصح إلا بترك كل شئ، ولم يبق عندى منه ذوق، فتركت الأسباب، وأطرحت العلائق، ولم يبق في نفسي تعلق بمخلوق، فخرجت سائحا متوكلا. [٣]

ولكن السبتى لم يهتم بالاتجاه الفقهى، ولم يتبع الاتجاه العقلانى، بل كان همه هو التعرف على أهل التصوف : " فتوكل وشد الرحال إلى مراكش عاصمة الفكر الصوفى والسياسي، وتلك كانت بداية السالك الذي لا يهتم بالأسباب والعلل، المنشغل قلبه بالذكر....

وبناء على ماسبق يتبين أن تصوف السبتي علم وعمل، وكان منطلقه "التوكل" كعمل ليحصل منه على علم، يقول الإمام القشيري[*] في رسالته : "الأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتى من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود". [٤]

١- ابراهيم بوتشيش : المغرب والأندلس في عهد المرابطين، ص١٣١، ١٣٢.
٢- المرجع السابق نفسه، ص١٣١.
٣- ابن الزيات : التشوف....، ص ٤٥٤.
*- هو عبدالكريم ابن هوزان ابن عبدالملك ابن طلحه النيسابوري من قشير ، شيخ خرسان في عصره ، كان زاهدا وعالما بالدين ، توفي ٤٦٥ هـ ، ومن أهم كتبه ، التيسير في التفسير ، لطائف الإشارات ، الرسالة القشرية (انظر: الزركلي : الأعلام ،ج ٤ ، ط ٩ ، ص ٥٧).
٤- الإمام القشيرى : الرسالة القشيرية، تحقيق د. عبدالحليم محمود ، مطبعة حسان، القاهرة، د.ت، ص٢٠٦

والسبتى يجاهد من أجل الحصول على مقام التوكل متخليا عن كل العلائق (فالتوكل مقام كل... من هو مشتغل بالرياضة له[١]، فالتوكل هو اعتماد القلب على الله مع عدم الاضطراب عند فقد الأسباب الموضوعة في العالم التى من شأن النفوس أن تركن إليها، فإن اضطرب فليس بمتوكل[٢].

والجدير بالذكر أن أبى العباس السبتي لم يذهب بعيدا فى منهجه الأخلاق والصوفى عن باقى الأولياء والدليل على ذلك: كان هناك شبه بينه وبين أبى يعزى من جهة ، وبينه وبين أبى مدين من جهة أخرى – كان السبتى كأبى يعزى أقام نظريته في العباده، وطريقته في التقرب من الله على عنصر الإحسان والإكرام والإيثار، منه ينطلق وإليه يعود.

وكان من جهة أخرى شبيها إلى حد كبير في انقطاعه وتدينه بالبداية التى سلكها أبو مدين، فهو كأبى مدين كان يقتصر على آية أوحديث لا يتعداه إلى غيره حتى يتقن العمل أولا، مختليا بنفسه من أجل ذلك ، وكذلك كان عند الرجلين شبه قوى في هيامهما بفكرة التوكل على الله، ويذهبان بعيدا في قطع العلائق، وإبطال الأسباب تحقيقا لمبدأ التوكل.

ومن جانب آخر كانت لأبى مدين الصوفى آية تشكل مفتاح نظامه يعمل عليها، ويرمز إلى الحقائق من خلالها وهى سورة الملك، وكذلك كانت لأبى العباس السبتى أيضا آية منها يبتدئ وإليها يعود[٣]، هى قول الله تعالى " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ... [٤]، بالإضافة إلى ذلك وضع أبوالعباس السبتى برنامجا تطبيقاً، فقد أخذ على نفسه تطبيق مبدأ الإحسان فيما يخص شخصه أولا قبل أن يعمل على دعوة الناس على نهج المسلك نفسه، وقد عمل على ترويض نفسه على البذل، والسخاء، وإخراج حب المال والمتاع من قلبه بالتدرج شيئا فشيئا، انطلاقا من قناعته التامة بأن أشرف الخصال فى الإسلام هى فضيلة الإنفاق والسخاء.

وكذلك وضع لنفسه برنامجا تصاعديا لتنفيذ ذلك، ويتلخص برنامجه في عدة نقاط :.

<u>الأولى</u>: نذر أولا أن يطبق الآيه القرآنية " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لعلكم تذكرون " على ظاهرها وذلك بالتزامه بأن يقسم ماساقه الله إليه من رزق إلى قسمين متساويين يرمز إليهما العدل والإحسان، ومن ثم كان ينفق على نفسه وأهله القسم الأول، ويجتهد في الإحسان بالنصف الثانى.

١- المصدر السابق نفسه، ص٢٠٤.
٢- ابن عربى : الفتوحات المكية، ج٣، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت، ص١٩٩.
٣- عبد السلام غريمى : المدارس الصوفية والمغربية والأندلسية في القرن السادس الهجرى، دار الرشاد الحديثة، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م، ص٣٥٦.
٤- سورة النحل، الآية ٩٠.

الثانية: تعاهد مع نفسه على إمساك الثلث، والتصدق بالثلثين الباقيين، فكل رزق وصل إلى بين يديه يتصرف فيه على هذا النحو.

الثالثة: شدد على نفسه أكثر وألزمها بأن يقسم ما تيسر له إلى سبع أقسام يستأثر لنفسه بسهمين منها، ويتصدق بالأسهم المتبقية.

الرابعة: انتهى أخيرا إلى أن يأخذ من كل ما رزقه الله العُشْر، وأن يحسن إلى المحتاجين بالتسعة أعشار الأخرى. [١]

وتجدر الإشارة إلى أن أبا العباس السبتى يلتقى في هذا الأمر بنظيره الصوفى أبي يعزى في ممارسة التصوف القائم على البذل والسخاء، فقد أخذ أبو يعزى على نفسه أيضا بكثرة الصدقة والإنفاق، وكان يخرج تسعه أعشار محصوله، وينفق على نفسه عُشْرا واحدا.

وعلى ذلك يتبين أن أبا العباس السبتى لم يكن بعيدا في رسم منهجه عن الكتاب والسنة، بل رسم برنامجا تصاعديا من خلال الالتزام بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فنهج طريق السيرة النبوية نفسه، فقد كان محمدا (صلى الله عليه وسلم) أجود الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، كما وصفه عبدالله بن عباس، فقل أنس: إن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه وقال: أسلموا فإن محمدا (صلى الله عليه وسلم) يعطى عطاء من لا يخشى فاقة، وأعطى (صلى الله عليه وسلم) مائة من الإبل[٢].

ومن جانب آخر كان أبو العباس السبتى كسائر الصوفية لا يقتنع بالعمل الظاهر الذى تباشره الجوارح إذا لم يقترن بطمأنينة قلبية تامة، ولذلك فسر البخل بمنظور آخر لا على أنه عدم الانفاق، بل على أنه التردد فى الإنفاق، فمن هم في رأيه بصدقة، ثم تردد في فعلها، يعتبر بخيلا، ولو أخرجها فعلا، وهكذا كان يرى أن حقيقة الاتصاف بالكرم اقتران الخاطر الأول الذى يرد على الإنسان بذلك الفعل.

بالإضافة إلى ذلك كان أبو العباس السبتى يرى أنه بقدر ما يمعن الإنسان في الاتصاف بصفة الإحسان، يكتسب قدرات خاصة، وتتجوهر نفسه ليصبح متمكنا من علوم، "ومتحكما في عوالم"، ولذلك اعتبر أنه " بإعطاء الشطر تكون الوقاية ".[٣]

وعند تأمل مذهب السبتى الأخلاقى والصوفى يتبين أنه فعلا تطلع متعال في مجاهدة النفس، وإزاله جرثومة الحرص منها، كما ترتب على تطبيق برنامجه التصاعدى " فتاوى " غريبة عن هذا المستند الأول في فلسفته، والمثال على ذلك كان يوصى من يشكو إليه الفقر

١- عبدالسلام غريمى : المدارس الصوفية والمغربية والاندلسية في القرن السادس الهجرى، ص ٣٥٧ .
٢- القاضى عياض : الشفاء بحقوق المصطفى، ص١١٢.
٣- عبد السلام غريمى : المدارس الصوفية والمغربية والاندلسية في القرن السادس الهجرى، ص٢٥٥.

أن يتزوج ويتكلف بمؤونة قرينه في الحياة تزيده عبئا على عبء، وهذا نقيض ما يقتضيه النظر العقلى المجرد، فقد أمر أبو العباس السبتى شخصا بالزواج من أجل دفع الفاقة والإملاق، ولما لم تحصل له سعة في الرزق، طلب منه الزواج من الثانية فالثالثة فالرابعة، ثم حصل عنده الرخاء والانبساط في المعيشة.[١]

والجدير بالذكر أن أبا العباس السبتى كان لا يؤثر بإحسانه أبناء ملته من المسلمين فقط، بل كان يرى وجوب تعميم الرحمة على سائر الخلائق بما فى ذلك اليهود والنصارى، ويذكر ذلك بقوله : إنه كان رحيما باليهود.[٢]

ومن خلال ما سبق يتبين أن الذى ساد فى تلك الفترة هى العقلية المتوازنة في مناطق مثل مراكش واشبيليه وقرطبه كما هو الشأن بالنسبة لكل الحواضر الإسلامية التى تزدهر فيها روح التسامح والتعايش بين كل الملل، ولا يتعارض فيها التدين الإسلامى الحق مع إفساح المجال لباقى المذاهب الدينية الأخرى.

بالإضافة إلى ذلك استند أبو العباس السبتى إلى العديد من الآيات القرآنية لتخدم نظريته في الصدقة والإحسان، فتحول مع مرور الزمن إلى مفسر للقرآن الكريم يشرح الآيات ويستخرج المعانى، ويوظفها في الوعظ والتزكير، فكان يفسر الآيات تفسيرا إشاريا.

ومن الأمثلة على ذلك كان يفسر الفساد في الأرض بالبخل والامتناع عن النفقة، وأصدق دليل على ذلك قول الله تعالى: " فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا". [٣]

فيشرح أبو العباس السبتى هذه الآية بقوله : أولو بقية، أتدرون ما هذا الفساد، إنه إهلاك الحرث والنسل بالبخل المؤدى إلى الجدب[٤]، وعندما ذكر قوله تعالى " إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ"[٥]

يقول: الأمانة هى الرزق، فالسموات أعطت ما عندها من الماء وهو المطر، والأرض أعطت ما عندها من النبات والثمار وما فيها من الأرزاق، وأبت من إمساكها، فصار الإنسان خازنا لما يجتمع عنده فيمنع منه المساكين " إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا"[٦]، وكذلك فسر

١- المرجع السابق نفسه، ص٣٥٩.
٢- عبد السلام غريمى : المدارس الصوفية والمغربية والاندلسية في القرن السادس الهجرى، ص٣٦٠.
٣- سورة هود، الآية ١١٦.
٤- عبد السلام غريمى : المدارس الصوفية، ص٣٦٢
٥- سورة الأحزاب، الآية ٧٢
٦- سورة الأحزاب، الآية ٧٢

قوله تعالى " وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى"[1]، بقوله وإن ليس للإنسان الإ ما أنفق وأعطى.

وتجدر الإشارة إلى أن أبا العباس السبتى لم يكتف بتأويل الآيات القرآنية فقط، والتى تدل على معنى النفقة، بل تعدى إلى الميل نحو تأويل نصوص السنة النبوية، وأصدق دليل على ذلك أنه فسر الفِرْقة الناجية من بين الفرق الاثنتين وسبعين على أنها الفرقة التى تتصف بالإنفاق.

ومن خلال ما سبق يتبين أن لأبى العباس السبتى منهجا خاصا في التفسير ربط فيه بين الآيات بذكاء، بل جعل أساس تأويلها دائما الرجوع إلى مبدأ الإحسان والنفقة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكتف بتأويل النصوص القرآنية والتى تخدم نظريته في الإنفاق والعطاء، بل تعدى ذلك إلى استخدام النصوص النبوية لتدعيم فكرته ومنهجه.

١- سورة النجم، الآية ٣٩

الخاتمة وأهم النتائج:

وختاما لهذا العرض التحليلي المقارن لموضوع " جدل المفارقة بين الدور الأخلاقى والدور الاجتماعي للأولياء في المجتمع المغربى والأندلسى –أبوالعباس السبتى " أنموذجا " فقد أمكن استخلاص أهم النتائج في نهاية البحث على النحو الآتي:

الأولى: إن التصوف خلال هذه الفترة كان بعيدا عن تناول القضايا الفلسفية، واكتفى في بعض أشكاله بمجاهدة النفس والزهد في الحياة. بالإضافة إلي ذلك ارتكز أصحاب هذه التيارات على الكرامة الصوفية ، والتشديد علي الجانب الأخلاقي والنزعة إلى الإسلام، وهذا التيار الصوفي السبتي كان له دور كبير في التصوف المغربي.

الثانية: نجح المتصوفة خلال هذه الفترة في التأثير في شرائح اجتماعية هامة، وتركوا بصمات اجتماعية واضحة في أخلاق المجتمع، والدليل على ذلك الأثر الذي خلفه هؤلاء المتصوفة على الأمراء أنفسهم، فقد تأثر عدد منهم بالتيار الصوفي، حين أزال منهم كل مظاهر الكبرياء وحوَّلها إلى حياة الزهد والقيم والأخلاق.

الثالثة: كما شارك المتصوفة فى الاسهام في علاج المرضى، فضلا عن دورهم الأخلاقى والدعوة إلى القيم الدينية وبناء المساجد، ومساعدة الفقراء لأداء فريضة الحج، وتوفير السكن للمتشردين من جراء السيول، كما كان لهم دور في مساعدة أهل المغرب في الرجوع عن بعض مظاهر اللهو من خلال ترك الرذائل من رقص وغناء، وترك عادة شرب الخمر، بذلك كان للمتصوفة الأثر الفعال في حياة المجتمع المغربي.

الرابعة: قدم أبو العباس السبتى خلال هذة الفترة أفضل نموذج للدور الاجتماعى والأخلاقى للمتصوفة، وذلك من خلال غرس قيم الرحمة والإحسان داخل المجتمع، فقد رسم صاحب هذا الاتجاه برنامجا تطبيقيا تصاعديا لنفسه، وأقام نظريته فى العبادة وطريقته فى التقرب من الله على عنصر الإحسان والإكرام والإيثار، منه ينطلق وإليه يعود، وكان كسائر الصوفية لايقتنع بالعمل الظاهر الذى تباشره الجوارح إذا لم يقترن بطمأنينة قلبية تامة.

المصادر والمراجع

اولاً : كتب التراث :

١- ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط٢، دار البيضاء، ١٩٩٧م.

٢- ابن عربى : الفتوحات المكية، ج٣، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت.

٣- أبو القاسم اللاكاتى: كرامات أولياء الله عز وجل، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٢م.

٤- الإمام ابن تيمية : المعجزات والكرامات، تحقيق أبى عبد الله، مكتبة الصحابة، ط١، القاهرة، ١٩٨٦م.

٥- القاضى عياض : كتاب الشفا بحقوق المصطفى، ترجمة نواف الجراح، دار صادر، بيروت، لبنان، د. ت.

٦- الإمام القشيري : الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود، مطبعة حسان، القاهرة، د.ت.

ثانيا المراجع الحديثة :.

٧- ابراهيم بوتشيش : المغرب والأندلس في عهد المرابطين، دار الطليعة للطباعة النشر، بيروت، د.ت.

٨- حسن جلاب : الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب، رسالة دكتوراه غير نشوره، د.ت.

٩- ---------- : بحوث في التصوف المغربى، المطبعة والوراقة الوطنية، ط١، مراكش، ١٩٩٥م.

١٠ – عبد الحليم محمود : شيخ الشيوخ أو مدين الغوث – حياته ومعراجه إلى الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

١١- عبد السلام غريمى : المدارس الصوفية والمغربية والأندلسية في القرن السادس الهجرى، دار الرشاد الحديثة، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.

١٢- محمد طاهر علاوى : العالم الرباني سيدى أبى مدين شعيب، شركة دار الأئمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٤م.

ثالثا : كتب اللغة:

١٣- ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ج٥، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

١٤- ابن منظور : لسان العرب، تحقيق أمين محمد عبدالوهاب، ج١٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩ م.

١٥- الخليل ابن أحمد الفراهيدي : كتاب العين، تحقيق عبدالحميد هنداوى، ج٤، دار الكتب، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.

رابعا : المعاجم والقواميس :

١٦- الزركلى : الأعلام، ج٤، دار العلم للملايين، ط٩، بيروت، لبنان، د.ت.

١٧- سعاد الحكيم : المعجم الصوفى، ندرة للطباعة والنشر، دار المسيرة، ط٢، بيروت، ١٩٨١م.

١٨- عبد المنعم الحفنى : معجم المصطلحات الصوفية، دار المسيرة، ط٢، بيروت، ١٩٨٧م.